

الكاتب والناقد

2017/3/29

ينقسم القراء عامة إلى نوعين: نوع يبحث عن شيء جديد يشكل تحدياً لعقله، ويفرض عليه أن يعيد النظر فيما لديه من قناعات قد يكون معظمها قد تقادم بفعل الزمن، أو كان خاطئاً أو مزيفاً منذ البداية، وبالتالي يتعلم القارئ هذا شيئاً مفيداً يسهم في تغيير القليل أو الكثير من مواقفه وقناعاته. أما النوع الثاني من القراء، فيبحث فيما يقرأ عن معلومات وآراء تعزز ما لديه من قناعات مترسخة في الوجدان، علماً بأن كثيرها أو قليلها كان قد تكوّن في مراحل الوعي الأولى حين كان صاحبها لا يملك الحد الأدنى من القدرة على التحليل العلمي لاختبار مدى توافقها مع العقل والمنطق؛ الأمر الذي يجعل هذا القارئ يهدر وقته لأنه لن يتعلم شيئاً مفيداً يقوده إلى تطوير فكره ومواقفه وقيمه. وفيما يتواجد القارئ الأول في المجتمعات الصناعية والمعرفية بكثرة، إلا أنه يغيب غياباً يكاد يكون كلياً عن المجتمعات العربية عامة، والفئات العقائدية خاصة.

القراءة النقدية التي يمكن أن توصف بالعلمية عليها أن تنظر لكل نص فكري أو أدبي من 3 زوايا مختلفة: الأولى إبراز ما هو إيجابي وجديد في النص من معلومات وأفكار وطرق في طرح الأفكار، وشرح الأسباب. والثانية، تحديد النقص في المعلومات الواردة في النص، والأخطاء التي قد يكون الكاتب قد وقع فيها بسبب عدم قدرته على فهم النص واستيعاب مرامييه، وتبيان الأسباب التي يراها الناقد، ودعمها علمياً ومنطقياً. والثالثة، هي النظر إلى ما جاء في النص من فكر وتحليل بوصفه رأياً يحتمل الصواب والخطأ، مع إبداء الأسباب، وترجيح كفة على أخرى. أما التوقف عند التشكيك في المعلومات والآراء المطروحة في النص، أو التهجم على كاتب النص والتشكيك في أمانته العلمية، فليس نقداً، وإنما عيباً في الناقد يعكس ضحالة في الفكر، وعجزاً في القدرة على النظر إلى النص بصورة علمية؛ الأمر الذي يجعل الناقد هذا يتصرف كما يتصرف كل جاهل مستبد في عالمنا العربي الذي يكاد يغرق حتى أذنيه في مستنقع التخلف والبلادة العقلية.

وعلى صعيد آخر، يمكن القول أن أعظم تحدٍ يواجهه الإنسان في حياته هو التحدي مع الذات، النابع من الذات؛ وهذا موقف يعكس شكاً في صلاحية المخزون الثقافي ووعياً بضرورة مراجعته باستمرار، وكلما تغيرت ظروف الحياة وأصبحت أكثر تعقيداً. وهذا أمر لا يحدث في العادة إلا نادراً حين يمتلك الإنسان المعني ما يكفي من المعرفة العلمية والجرأة للاعتراف بخلل بعض أفكاره ومعلوماته، ويكون لديه الشجاعة لإعادة النظر في مخزونه المعرفي وقناعاته الإيمانية وتقاليديه الاجتماعية. التحدي مع الذات هو الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان، لأنه القوة الوحيدة القادرة على تحرير الإنسان من مكبلات الماضي والتراث والتقاليد والخرافات وكل ما يكبله من شعارات، وتعزيز إمكاناته العقلية على اتخاذ القرارات المصيرية دون معاناة نفسية أو تعذيب من ضمير صحاب بعد نوم طويل.

بينما كانت هزيمة 1967 تتضح معالمها ساعة بعد ساعة على أنها هزيمة حضارية شاملة لم تستثنى وجهاً واحداً من أوجه الحياة العربية، كنت طالباً في جامعة هيوستن في ولاية تكساس. نتيجة

لذلك قررت أن لا أتكلم مع عربي لمدة 15 يوما على الأقل، قضيتها في التأمل والتفكير وإعادة النظر فيما كان لدي من قناعات فكرية مترسخة، وإيمان بحتميات دينية وتاريخية تراكمت عبر نحو 20 سنة من الدراسة في المدارس والجامعات، إضافة إلى النشاطات الطلابية والحوارات الفكرية. وبعد مرور نحو 10 أيام قضيتها في التجوال في الغابات وحيدا مع الطبيعة والحيوانات والطيور، بدأت أستعيد تجربة حياتي شيئا فشيئا من الطفولة حتى ذلك اليوم، وكأنها شريط سينمائي يمر أمام عيني فيما اجلس في مقعد مريح. خرجت بعدها بجملته واحدة، واضحة وضوح الشمس تقول: "لو لم يكن كل ما آمنا به خطأ لما حدث ما حدث".

ومن هناك كان علي أن أبدأ رحلة جديدة مع الفكر والعلم والحياة تتجاوز الماضي بكل ترسباته الاجتماعية والثقافية والفكرية والسلوكية؛ الأمر الذي أوصلني إلى ما أنا عليه اليوم من علم ووعي ومواقف وقناعات لا تتوقف أمام شعارات أو إيديولوجيات مهما كانت طبيعتها وأهدافها. وفي الطريق إلى هذه النقطة، اكتشفت أنه كان علي أن استخدم ثلاثة معايير للحكم على مدى صحة كل حدث وفكر ورأي: العلم أولا، والعقل ثانيا، والتجربة الإنسانية ثالثا. وبناء على ذلك قمت بمراجعة ما كان لدي من مخزون فكري وثقافي ومعلوماتي؛ الأمر الذي مكّني من تصحيح العديد من الأخطاء، وتحديث معظم المعلومات، وتطوير الأفكار والمواقف الأساسية، وإعادة ترتيب الأهداف والاولويات. نعم، لقد كانت رحلة المراجعة صعبة ومرهقة ومخيفة أحيانا، لكنها كانت قارب النجاة الذي انقذني من غوغائية الشعارات والمهاترات الفكرية والقيود الإيديولوجية التي تقتل الروح قبل الجسد. وما دام أنه كان باستطاعتي ان أفعل هذا وأنا مازلت كنت طالبا، فإن بإمكان كل إنسان أن يفعل الشيء نفسه، ويصل إلى النتائج نفسها، لكن عليه أن يتحلى بالجرأة والأمانة مع النفس والغير.

د. محمد ربيع

www.yazour.com